خواطر سائح في بلاد كَبدُوقية:
معابد ومناسك وأيقونات وحضارة فريدة

الأب سليم دكّاش اليسوعيّ(٥)

زرتُ تركيا مرّة أُولى سابقًا وطفتُ بين أنطاليا وأفروديسياس وأفسس ومريمانا ومدن الساحل، واكتشفتُ حينذاك ما اكتشفت من الثروات التاريخيّة الحضاريّة، ولكن لم يتسنَّ لي رؤية كَبدُوقية، في قلب البلاد. فصمَّمنا، في الصيف الماضي، أنا وأحد رفاقي، أن نتوجّه إلى تلك الناحية التي يعرفها الكثير من الأوروبيّين والأميركيّين وغيرهم، في حين تبقى مجهولة لدى أبناء الشرق الذين يعرفون طور عابدين وبرّ الأناضول أكثر من غيرهما في تركيا. «كَبدُوقية» اسم عرفته قديمًا عند ذكر آباء الكنيسة الكبدوقيّين، الأقمار الثلاثة، باسيليوس القيصريّ وغريغوريوس النيصيّ وغريغوريوس النيزيانزيّ. وهذه دلالة على أنّ تلك البلاد كان لها مع المسيحيّة تاريخٌ طويل مدّ جذوره في أرضها، وهي جذور لا زالت آثارها باقية حتّى اليوم، وما بقي من الآثار يبقي الماضي العريق. ومَن يجهل كبدوقية المنارة التي ازدهرت فيها الحياة الرهبانيّة أيّما ازدهار، وتعدّدت فيها المناسك والمغاور والأديار، إلى جانب مصر وسوريا وفلسطين وبلاد ما بين النهرين؟

---

(٥) رئيس تحرير المشرق.

أدب الرحلات والسياحة في «المشرق»

يمتاز أدب الرحلات والسياحة في مجلّة المشرق بموقع بارز منذ نشأتها في العام ١٨٩٨، حيث توالت الأقلام على تحرير هذا الصنف من المقالات نظرًا إلى قيمتها ومنفعتها، وخصوصًا في الحقبة الأولى من هذا القرن الذي لم يكن قد عرف الطائرة والسيّارة وسواها من وسائل النقل السريع... والمقال في الرحلة والسياحة يخضع لعدّة شروط:

- ليس مقالًا صحافيًّا سريعًا يتوقّف على وصف المشاهدات السطحيّة العابرة، بل هو مقال يتوسّع في المطالعة والعرض والإنشاء. حتّى تخال نفسك أنّك ترى ما يراه الكاتب.
- يكتب مقالًا في هذا الأدب مَن قام هو نفسه برحلة إلى منطقة معيّنة، حيث يكون قد شاهد بالعيان حالة البلد واطّلع على وضعه ووقف على آثاره وأحواله. فلا يكون المقال نقلًا عن كتاب أو موسوعة أو حتّى عن مشاهد آخر، بل نقلٌ مباشر عن الواقع الحيّ الذي شاهده صاحب الرحلة.
- ويكون المقال علميًّا حيث يصف بدقّة، إلّا أنّه ليس بالضرورة مقالًا يدخل في التفاصيل الدقيقة التي يملّها القارئ.

من الأقلام التي كتبت في المشرق: الآباء اليسوعيّون شيخو ولامنس وجوون وروننرقال ودي أنسلم وجوليان ومالون ودوران وتوتل؛ والكهنة لويس لورروا وحرفوش وساره وشبلي؛ وبعض العلمانيّين أمثال الدكتور موسيل والصيدليّ عبدالله رعد والأديب حبيب فريحة والأديب فؤاد أفرام البستانيّ وغيرهم.

ومن البلاد التي جال فيها السيّاح أصحاب المقالات، في لبنان: مناطق البترون وبشرّي وعكّار وصان الحجر والمنزلة وإقليم الخرّوب وكسروان والشوف وغيرها؛ وفي سوريا: مناطق حماه وحلب وناحية المدن العشر وتدمر وجبل الشيخ وحوران والصالحيّة والمرقب؛ وفي مصر زار الكتّاب مناطق الصعيد والأقصر وأسوان... وتتوسّع الدائرة لتصل إلى فلسطين وتركيا والمملكة العربيّة السعوديّة والعراق وسريرا وسواها. والطريف أنّ بعض هذه المقالات موثّق بالصور والرسوم والخرائط دلالة على شغف الكاتب بأدب الرحلات والسياحة.

وهذا الأدب ربّما سقط اليوم في النسيان مع تطوّر وسائل النقل وازدياد الحركة السياحيّة من بلاد إلى أخرى بشكل ملحوظ. إذ إنّ تركيا وحدها يدخلها كلّ سنة حوالى التسعة ملايين سائح، ولبنان ما قبل الحرب كان يزوره أكثر من ثلاثة ملايين سائح. إلّا أنّ هذا الأدب يبقى حيًّا ومفيدًا، إذ هو تعبير عن اختبار شخصيّ ومعاناة مميّزة لاكتشاف ونظرة ومشاهدة. ألم يقل مرتين إنّ المعرفة الصحيحة والتربية الأكيدة هي التي يكتسبها الإنسان في أسفاره؟

الطريق من أنطاليا إلى كبدوقية

في صبيحة الأوّل من شهر آب ١٩٩٧ انطلقنا بسيّارة مستأجرة في أنطاليا إلى الداخل التركيّ فالأناضول، حيث تقع بلاد كبدوقية التي تبلغ مساحتها حوالى الثماني مرّات مساحة لبنان، أي ما يتجاوز الـ ٧٥ ألف كيلومتر مربّع. أخذنا الطريق جنوبًا باتّجاه طرسوس، ثمّ انحرفنا يسرة عند مدينة مانافوس صعودًا صوب أكسيكي، ثمّ سيديشهير وبعدها بيشهير، حيث توقّفنا لزيارة أحد الجوامع الشهيرة في تركيا، وهو جامع أشرف يلو، ذو القباب السبع (من القرن الثالث عشر) وقد بناه الحاكم أشرف السلجوقيّ. وما يميّز هذا الجامع الذي صمّمه المهندسون السلجوقيّون هو مجموعة العواميد من خشب الأرز، وهي محفوظة من دون تبديل من القرن الثالث عشر، إلى جانب الخزف المطليّ المزخرف عند المحراب والمنبر. ومع زخّات المطر الغزير الذي أغرق منطقة الأناضول يومذاك بكمّيّات كبيرة من المياه وربّما أتلف محصول القمح الذي لم يكن قد حُصِد بعدُ، انطلقنا من بيشهير إلى قُونية، مدينة مولانا جلال الدين الروميّ، لزيارة ضريحه وتكيّته. قونية هي إيقونية التي جمّلها الأباطرة الرومانيّون بحلّة بهيّة، ومكث فيها القدّيسان بولس وبرنابا في السنوات ٤٧، ٥٠ و٥٣ أثناء أسفارهما الرسوليّة في آسيا الوسطى. وبعد أن أحرق الأتراك السلجوقيّون المدينة في منتصف القرن الحادي عشر، أصبحت عاصمة السلطنة وتحوّلت سريعًا إلى مدينة لها قدسيّتها، إذ إنّ القرن الثالث عشر شهد صعود نجم جلال الدين الروميّ (١٢٠٧-١٢٧٣م) الذي أخذ يعلّم العلوم القرآنيّة في المدينة منذ ١٢٤٠ ميلاديّة، ثمّ أسّس جمعيّة الدراويش في نهاية حياته. دخلنا قونيه وتوجّهنا بين المنائر ودور العبادة إلى ضريح مولانا في مبنى يُزيّنُ واجهة برجه الرئيسيّ الخزف الأخضر المزخرف. وهذا المبنى الذي أصبح في جمهوريّة أتاتورك العلمانيّة متحف الفنّ الإسلاميّ، هو الآستانة يحوزور (بالفارسيّة)، أي عتبة الحضرة. إنّه البيت الأمّ لكلّ أديار الدراويش في الأناضول وسوريا ولبنان ومصر. تدخل هذا المتحف فتشاهد بعينيك قبر مولانا جلال الدين الروميّ

وكذلك قبر مولانا السلطان الولد، أي ابن جلال الدين الروميّ. وإلى جانب القاعة الكبرى التي تحوي القبرين والكثير من الأشياء التذكاريّة، تتّجه إلى صالة السمع التي بناها سليمان العظيم، وهي تحتوي الكثير من آلات الموسيقى، وكذلك كتب الموسيقى الصوتيّة التي كان يستعملها الدراويش في رقصهم الذي توقّف رسميًّا سنة ١٩٢٥ بقرار من الحكومة التركيّة. أمّا القسم الباقي من المبنى أو دير الدراويش فإنّه تحوّل إلى متحف يُعرض فيه أثمن السجّاد من الأناضول، وخصوصًا السجّاد الكيليم الذي ما يزال يُصنع بحسب التقنيّات السلجوقيّة القديمة من القرن الثالث عشر.

أمّا رقصة الدراويش فإنّها ما زالت تُقام سنويًّا ولأسبوع من الزمن في شهر أيلول بمدينة قونية نفسها وفي كلّ عام. في حين أنّ فرقًا أخرى من الدراويش تقدّم رقصها مرّة في الأسبوع في إسطنبول وغيرها من المدن التركيّة. وهذا يعني أنّ جمعيّة الدراويش التي كان حكم أتاتورك قد قرّر وقف نشاطها ما زالت تعمل وإن بصورة سرّيّة. وهذه الرقصة وهي استكمال حلقات الذكر التي يعقدونها للتأمّل حتّى الانخطاف، ترمز إلى تصوّر كونيّ للتاريخ والعالم. فالرقص هو صلاة ترفع إلى الكائن الأسمى، وعبرها ينخطف الدرويش في الله. وللرقص أيضًا طقسه: فالثوب الأبيض هو ثوب الحداد، والمعطف الأسود هو القبر، والقبّعة هي حجر القبر، في حين أنّ الشيخ، وهو خليفة جلال الدين، محور اللقاء بين الزمنيّ واللازمنيّ. ومجمل الرقص وحركاته يرمز إلى اللقاء بين الإلهيّ والعالميّ، بين الله والبشر، والدرويش هو الوسيط، يرفع يمينه لأخذ النعمة من الله ويخفض يساره ليعطيها البشرَ ويتحرّر من معطفه الأسود علامة الوحدة بالله والقيامة.

ونترك ضريح جلال الدين الروميّ والرهبة ترافقنا وكذلك المطر الغزير وننطلق إلى محطّتنا الأولى، مدينة أكساراي، ثمّ مدينة نفشهير محطّتنا الثانية. ونتوقّف قبل الوصول إلى أكساراي عند مبنى مستطيل كبير عرفنا عند الوقوف أمامه أنّه السلطانهانه، خان القوافل والمسافرين في.

القرن الثالث عشر، وقد بناه السلطان قيقبات الأوّل علاء الدين وهو من أجمل الخانات السلجوقيّة في تركيا، وتشهد على ذلك الزخارف والنقوش على بوّابته الرئيسيّة والإيوان الفسيح الذي يتّسع لمئات المسافرين مع جمالهم ودوابّهم. وإلى جنوب غربيّ أكساراي، يتراءى للعيان من بعيد جبل حسن (حسن دايي)، وهو كناية عن سلسلة بركانيّة تعلو المنطقة كلّها، وسلسلة حسن دايي هي إرسيس دايي البركانيّة المطلّة على مدينة قيصريّة كَبدُوقية الشهيرة.

وبعد سلطانهانه، نتوقّف قليلًا في نفشهير للاستراحة من عناء مئة وخمسين كيلومترًا من السفر في سهوب الأناضول الغنيّة بزراعة القمح ومختلف أنواع الحبوب. أمّا مدينة نفشهير فتثبت مثل واحة في السهل، وهي بموقعها مفتاح منطقة كَبدُوقية الداخليّة من ناحية قونية، في حين أنّ كيرشهير هي المفتاح من ناحية أنقرة.

في قلب كَبدُوقية

في قلب السهوب الصحراويّة التي تعصف فيها العواصف والتي يقطنها الذئاب إلى جانب قطعان الماشية، تقع منطقة غريبة بتكوينها وتضاريسها، حيث إنّ الحمم البركانيّة التي تساقطت سيولًا على المنطقة في أثناء الحقبة الجيولوجيّة الثالثة من جبل حسن دايي وإرسيس دايي حوّلت كبدُوقية الداخليّة إلى بحرٍ من صخور الرمل القاسي ذي اللونين الأحمر والأصفر. وتختفي زراعة القمح لتحلّ مكانها حقول البطاطس والبقول والخضراوات، في حين أنّ تلال الرمال الصخريّة تتكاثر هنا وهناك، بأشكال هندسيّة مختلفة، معبِّرة رائعة. وتتوالى الوديان والسواقي تحت ضغط المياه الغزيرة والهواء الشديد خصوصًا في فصل الشتاء. وعندما تشاهد الصخرة الرمليّة الأولى الهائلة على طريق نفشهير في محلّة أوتشيزار، فإنّك تبقى أسير الصدمة والذهول والتعجّب أمام تلك الثقوب المتعدّدة فيها، وهي كناية عن نوافذ أو أبواب المنازل التي حفرها الإنسان في تلك الصخرة منذ القِدَم. أوتشيزار المحطّة الأولى، هي مجموعة كبيرة

من الصخور المختلفة الأحجام والأشكال، وقد سكنها أو يسكنها أبناء آدم، إلاّ أنّها كما عرفنا هي اليوم ملك الدولة التركيّة ولا يُسمح لأحد أن يغيّر فيها شيئًا. وإلى جانب الصخور المثقوبة، فإنّ تلالًا متشابكة متلاصقة من الصخور الرمليّة تبدو كأنّها كُثُب الرمال في الصحراء. ونتجاوز أورتشيزار إلى البلدة الرئيسيّة في كَبْدُوقية وهي أفيشلار - غوريمي حيث وصلنا في حوالى الساعة الخامسة والنصف مساء، والشمس في المغيب تلقي ببعض خيوطها الشقر على الوادي، وادي القدّيسين، وادي الكنائس. هذه المنطقة أو هذه المَتيهة المزروعة بالقمم والتلال من مختلف المقاييس؛ هذه الأرض ذات الألغاز والأسرار كانت ملجأ للناس منذ عصور بعيدة، وهي اجتذبت إليها آلاف مؤلّفة من الذين كرّسوا أنفسهم للصلاة والتأمّل والعبادة والنسك منذ بداية المسيحيّة. وخير شاهد على ذلك المئات من المناسك والأديرة والكنائس الصخريّة التي تراها عند كلّ صخرة أو هضبة أو وادٍ وكأنّ الأرض زرعت مزروعاتها. والمعروف أنّ عدد الكنائس كان يتجاوز الثلاثة آلاف على ذمّة الراوي، إلّا أنّ ما بقي منها ليومنا هذا هو ثلاثماية وخمسون، منها مئة وخمسون كنيسة في حالة قريبة من المقبول.

غوريمي

في بلدة غوريمي، أي «البلدة التي لا وصف لها»، بدأ إنشاء المزارات والمناسك ابتداء من القرن السادس، إلّا أنّ ازدهار الحياة المسيحيّة فيها وصل إلى أوجه في القرن التاسع وبعده. وكانت البلدة معروفة، في أثناء القرن الحادي عشر، بكنيسة توكاله، حيث كان العديد ممّن اعتنقوا الحياة الرهبانيّة يقطنون حوالى ثلاثين ديرًا ومنسكًا. والكنائس هي من صنفين: الأوّل تأثّر بالفنّ الشعبيّ البسيط، ككنائس القدّيسة بربارة، وباسيليوس، والكنيسة ذات الحيّة؛ والثاني ينتمي إلى فنّ آخر أكثر كلاسّيكيّة ورونقًا، تحقّق بطلب من الأشراف ويدعم منهم، مثل الكنيسة القاتمة والكنيسة ذات التفّاحة والكنيسة ذات النعل. بالإجمال في

هذه الكنائس وفي كنائس كبدوقية، الوضع محزن ومخزٍ حيث إنّ المناخ القاسي كان وراء خراب بعضها وامّحاء الألوان عن التصاوير. وما عجز عنه المناخ بشمسه وهوائه ومطره وجليده أكملته يد الإنسان، فلا ترى وجهًا إلّا وقد أزيلت عيناه ولا قدّيسًا إلّا ونال قسطه من التشويه المقصود. فالحكومة التركيّة تقوم ما بوسعها لحفظ هذا التراث العالميّ من العبث والخراب، وقد وضعت مشروعًا لذلك منذ ١٩٨٢، والأونيسكو وضعت منطقة غوريمي الأثريّة على لائحة التراث العالميّ منذ العام ١٩٨٥. إلّا أنّ الوسائل التي جُنّدت لحماية الرسوم والتصاوير في الكنائس ليست كافية، لأنّ أكثر من خمسة آلاف زائر يوميًّا يؤمّون هذه المعابد، ويصدر منهم من أكسيد الكاربون ما يقضي على الجماد والشكل واللون.

نتوقّف عند ثلاث كنائس في غوريمي:

- كنيسة القدّيسة بربارة ذات التصاوير البسيطة والأعمدة المحفورة حفرًا في الصخر، ومنه تكثر فيها رسوم الصلبان باللون الأحمر علامة الفداء. الرسوم هي على الصخر مباشرة، ورواج الصلبان في كنائس كبدوقية يعود إلى عبادة الصليب المقدّس إثر اكتشاف عود الصليب على يد القدّيسة هيلانة في القرن الرابع. على جدران الكنيسة تبدو لوحات متعدّدة للقدّيسة بربارة، والقدّيسَيْن جاورجيوس، قاتل التنّين، والقدّيس تاودورس، والعذراء مريم. في حين أنّ السيّد المسيح يحتلّ مركز الصدارة التقليديّ في وسط القبّة. ونتبيّن أيضًا رسمًا غريبًا يبدو فيه ديك من الديوك وسط صليبيّين ونوعٌ من الجنّ، وربّما كان هذا المشهد يرمز إلى حادثة تعزيم (طرد الشيطان).

- **كنيسة توكاله**، وهي من كنائس غوريمي الفريدة وأثر عظيم. السيّاح جميعًا يزورون هذا الأثر نظرًا إلى قيمته الاستثنائيّة، وقد تمّ بناؤه في القرن العاشر على مرحلتين، وبالتالي فهو يضمّ كنيستَيْن، **توكاله الأولى وتوكاله الثانية**.

الكنيسة الأولى، من القرن العاشر، تتألّف من ممرّ فسيح يؤدّي إلى صحن الكنيسة المتوازي الضلعين ومن قبّة مزيّنة، هي وجدرانها،

بالزيتيّات والرسوم «ذات النوع القديم»، وتمثّل حلقتَيْن مزدوجتَيْن لطفولة السيّد المسيح وآلامه.

أمّا الكنيسة الثانية، وهي قد حفرت لاحقًا في الصخر حفرًا فنيًّا جيّدًا، فإنّها مؤلّفة من صحن كبير ومن قبّة زرقاء لازَوَرْديّة، ترتكز على جدران تتعدّد فيها الرسوم الزيتيّة ذات الفنّ العالي الإتقان، وهي تمثّل مختلف أعياد السنة الكبيرة: كالبشارة والولادة والتجلّي والصلب والصعود والعنصرة ونياحة العذراء، وهذا الموضوع الأخير هو الغالب في كنائس كبدوقية لما للعذراء مريم من حضور وتكريم، وهي قد تنيّحت في أفسس بآسيا الصغرى. وبما أنّ موضوع الرسالة كان له وقعه آنذاك، فإنّ رسمًا للرسُل يمثّلهم في وضع إعلان البشرى على الجهة اليمنى للقبّة. وإلى رسم للعذارء مريم الحنونة تراها في أحد التجاويف، فإنّ وسط القبا يبرز حادثة الصلب، في حين أنّ السيّد على عرشه أخذ مكانه على يسار القبا.

أمّا الكنيسة الثالثة التي تدخلها بشيء من الرهبة والاندهاش فهي الكنيسة القاتمة، وقد سُمّيت بهذا الاسم لأنّ نور الخارج لا يدخلها إلّا بصورة غير مباشرة، وهذا ما أتاح للتصاوير والأيقونات أن تبقى في مأمن من عوامل التآكل والتبدّل. فاللازَوَرد منبسطٌ على جدرانها وقباها وقبيها بكثرة، والأيقونات التي تغطّي كلّ المساحة المحفورة في الصخر تمثّل وجوهًا متعدّدة من حياة السيّد، ومنها خيانة يهوذا، وهو مشهد رائع يروي بحركته علاقة السيّد برسله واحدًا واحدًا.

وهذه الكنيسة، كما هو بيّن، هي كنيسة دير رئيسيّ في غوريمي، حيث تزور إلى جانبها قاعة الطعام وبيت المونة والمطبخ، في حين أنّ المناسك تتكاثر حولها. وهذا الدير هو من أيّام النهضة الرهبانيّة في كبدوقية، حيث إنّ الحياة النسكيّة، بعد وَهَن أصابها من بداية القرن الثامن حتّى منتصف القرن التاسع، عادت فاشتدّ ساعدها في نهاية القرن التاسع وبعده حتّى القرن الثاني عشر. المعروف أنّ الرهبانيّة، في إطار القنوبيون أو دير الجماعة، أسّسها باخوميوس في القرن الرابع بمصر، حيث أعلى

من شأن الحياة الجماعيّة على الحياة الانفراديّة وتجاوزاتها. في كبدوقيه، أدخل باسيليوس القيصريّ الحياة الديريّة الجماعيّة إلى البلاد، إلّا أنّه أسّسها على قانون القدّيس باسيليوس الذي يشدّد على التمثّل بالإنجيل ومقتضياته، فنشأت المستعمرات الرهبانيّة إلى جانب البلدان والقرى، كشواهد رسوليّة إنجيليّة، يلتقي الرهبان فيها حول مائدة بسيطة يصلّون معًا سبع مرّات في اليوم، في حين أنّ بعضهم كانوا يستطيعون التريّض والاختلاء في المناسك المحفورة في طراوة الصخور الرمليّة. طريق رهبان كبدُوقية لم تكن الصحراء والبراري بل حياة مرتبطة بالأرض والمؤمنين والكنيسة الأسقفيّة، حيث إنّ الدير الذي كان يتجاوز عدد سكّانه الثمانية كان حكمًا تحت سلطة الأسقف، خصوصًا في ما يخصّ رسم الأيقونات وزيتها وموضوعاتها.

ونتنقل من غوريمي، بعد أن أمضينا الليل في أحد الفنادق الجديدة المريحة فيها، إلى أفانوس حيث زرنا مصانع الفخّار، وهي صناعة قديمة جدًّا، إذ إنّ نوعيّة التراب الأحمر هناك ساعدت الإنسان في تطوير تقنيّة صناعة الفخّار والأواني وغيرها. ونعرّج على كنيسة من الكنائس المتعدّدة في المنطقة فننحني فيها أمام رسوم صلبان على جدرانها، رسوم ازدهرت في مرحلة تحطيم الأيقونات (Période iconoclaste)، وكانت عبادة الصليب ازدادت بعد القرن الرابع كما ذكرنا آنفًا. . والصليب على أنواع في كنائس كبدوقية: الصليب المرسوم على الطريقة اللاتينيّة في المعابد القديمة العهد، والصليب المرصّع بالأحجار الكريمة، والصليب ذو الكرات، والصليب المتشعّب الرؤوس المستّة أو ذو الستّين ونجده بكثرة في الكنائس المارونيّة القديمة بشمال لبنان، والصليب الذي تحمله الأمبراطورة هيلانة بيدها. فهو علامة النصر وعلامة تكريس السيّد الضابط الكلّ المعابدَ كلّها.

مدن تحت الأرض

لا حدّ للمفاجآت في كبدوقية، وخصوصًا في وسطها. لقد عرفنا

بوجود مدنٍ تحت الأرض، مدن سراديب وأنفاق، منذ لحظة وصولنا الأولى. توجّهنا إلى واحدةٍ من هذه المدن، وعددها يفوق المئة، فإذا بنا أمام فتحة متوسّطة تقود إلى درج، ثمّ إلى نفقٍ، ثمّ إلى مدينة أنفاق وممرّات وفسحات وقاعات وكنائس وسراديب وبيوت للمونة والماشية. ننزل طابقًا ثمّ نتنقل إلى طابقٍ سفليّ آخر، فنتوقّع أنّ تنتهي الرحلة هناك، إلّا أنّ الدليل التركيّ المرافق الذي لم يلاحظ رهبتنا ورعبنا، أشار إلى درج طويل يقودنا إلى مجموعة أخرى من الطوابق السفليّة، إلى أن نزلنا خمسين مترًا في عمق أرض كبدوقية.

ما قصّة مدن الأنفاق هذه؟

قمنا بزيارة مدينة تحت الأرض هي كايماكله وهي واحدة من تلك المدن التي حفرها الإنسان عبر الأجيال تحت الأرض، أو بالأحرى تحت مدينة أو بلدة ظاهرة يعيش فيها، فكان له بيته في أيّام السلم والهدوء وبيتٌ آخر في الأنفاق أيّام الحروب والاضطهادات. في باطن أرض كبدوقية الطريّة، المكوّنة من الرواسب البركانيّة، حفر الناس ملاجئ وأنفاقًا، منها ما وصل إلى أحد عشر طابقًا تحت الأرض، فتكوّنت مدينة تحت مدينة أخرى، لها نظامها الهندسيّ المتكامل، من التخزين والتهوية وجرّ المياه ودفعها إلى الخارج، وخصوصًا نظام الحماية الأمنيّة للدفاع عن ساكني تلك الأنفاق من هجمات الغزاة. والمعروف بالاستناد إلى الوثائق التاريخيّة، أنّ المسيحيّين عاشوا طويلًا في تلك الملاجئ، ليتداركوا هجمات الفرس والمغول، إلّا أنّ، على الأرجح، لتلك المدن تحت الأرض تاريخها الطويل منذ الحثّيين وغيرهم.

مصطفى باشا وآثار حديثة شاهدة

على مسافة خمسة عشر كيلومترًا جنوب شرقيّ غوريمي، تقع بلدة مصفطى باشا، وهي من البلدات التي تسترعي انتباه السيّاح الأجانب والمحلّيّين. والواقع أنّ الطريق إلى مصطفى باشا تذخر بالمنازل

والحارات والأبنية القديمة بعض الشيء، وهندستها تدلّ على أنّها من القرنَيْن الثامن عشر والتاسع عشر، أي من الحقبة العثمانيّة. هذه المنازل غير المأهولة هي بالمئات، وقد قطنها المسيحيّون البيزنطيّون سكّان كبدوقية الأصليّين، إلّا أنّهم أُجبروا على مغادرتها في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن عندما تمّ استبدال السكّان المسلمين القاطنين على الأرض اليونانيّة بالسكّان المسيحيّين في كبدوقية، وقد حلّ بعض هؤلاء على الأراضي التي كان يسكنها المسيحيّون، إلّا أنّ أقلّيّة منهم فقط سكنت في المنازل ذات الطراز الهندسيّ الرفيع المقبّب والمزخرف.

مصطفى باشا هي مدينة كانت تسمّى سينوزون أو سينوزُس، وقد زرنا فيها فندقًا شيّد في نهاية القرن التاسع عشر، وعلمنا لاحقًا أنّ ذلك الفندق كان ديرًا يقيم فيه الرهبان. ونتنقل من مصطفى باشا، وكاتدرائيّة المسيحيّين المقفلة، الشاهد على العلاقة السيّئة بين اليونان وتركيا حتّى اليوم، إلى منطقة غولو ديري وكيزيل ديري (الدير الأحمر) وهما واديان يغلب عليهما اللونان الورديّ والأحمر، ممّا يدفع السيّاح إليهما لمشاهدة غياب الشمس عن تلك المنطقة التي تشبه سطح القمر. وعلى مثال كلّ وادٍ في كبدوقية، تختفي الصخور هنا وهنالك الكثير من شواهد الحياة المسيحيّة، كالمناسك والكنائس الصخريّة المزيّنة بالصلبان أو الأيقونات. ففي وادي غولو ديري، وبالرغم من خفوت نور الشمس، كان من الواجب زيارة كنيسة مار يوحنّا، وهي كناية عن صخرة كبيرة على شكل هرم، زُرعت زرعًا في الوادي بين الكروم والحقول، فجاءها الراهب المتعبِّد ففتح فيها فجوة كبيرة في وسطها حيث الكنيسة، في حين أنّ في القسم الأعلى تمّ حفر القلالي لتصبح سكن بعض الرهبان الزهّاد.

إيهلارا ووادي بيريستريما والكنيسة الحمرا

ونمضي ليلة أخرى في «فندق الشرق» في غوريمي ونتذوّق عشيّةً بعض الأطباق التركيّة المحلّيّة، ثمّ نتنقل صباحًا إلى وجهتنا الأخيرة في كبدوقية، إلى وادي بيريستريما المقدّس، وله بالحياة الرهبانيّة الشرقيّة

علاقة مميّزة. وادي بيريستريما شقّته مياه نهر ميليندير سويو الجارفة وهو يحتوي على مجموعة كبيرة من الكنائس والأديار المحفورة، هذه المرّة، في الصخر الكلسيّ القاسي، وهو أيضًا يُقسم إلى قسمين: مجموعة كنائس إيهلارا ومزاراتها، ومجموعة كنائس بليسيرما ومزاراتها.

في وادي إيهلارا التي زرناها ولم نستطع زيارة رديفتها بليسرما لضيق الوقت، مجموعة من الكنائس يتجاوز عددها الثلاثين، والكثير من المغاور والمناسك التي قطنها رهبان كبدوقية. وفي غالبيّة الكنائس، تستطيع أن تشاهد الأيقونات البيّة الجميلة، أو ما بقي منها، التي رسمها الفنّانون من رهبان وعلمانيّين منذ القرن التاسع ميلاديّ، وهذا ما يجمع عليه علماء الآثار والزيتيّات. الألوان حيّة غير فاقعة، واللمسة سريعة، والتباين بين الفاتح والداكن مشغول بدقّة متناهية تنمُّ على براعة وإحساس. والتأثير الشرقيّ القبطيّ والسريانيّ واضح في زيتيّات كنائس إيهلارا، حتّى تخال نفسك في الشرق نفسه، ومعلوم أنّ الكثير من الرهبان الأقباط والسريان قد سكنوا هذا الوادي مع الرهبان البيزنطيّين بعد القرن السابع، إثر فتح بلدانُ المشرق على يد المسلمين. وقد نقل الرهبان معهم فلسفة للحياة الرهبانيّة مغايرة للفلسفة اليونانيّة، ومجموعة من المخطوطات المصوّرة والمزيّنة بالرسوم المسيحيّة المختلفة والتقاليد الشرقيّة التي أصبحت جزءًا لا يتجزّأ من التقليد الفنّيّ المسيحيّ المحلّيّ. هذا التقليد الشرقيّ له أثره الواضح في كنائس مار دانيال، إيري طاش، كوكار، ويولانلو، في حين أنّ الكنائس التي شيّدت ابتداء من القرن الحادي عشر فقدت ذلك المزيج وأصبح الفنّ فيها يخضع لاعتبارات أكثر كلاسيكيّة وأرستقراطيّة كتلك التي نجدها في مناطق أخرى من غوريمي.

ومن الكنائس القديمة التي لا يزال التأثير الشرقيّ واضحًا في جدرانها وسقفها وقبابها، كنيسة كوكار أو كنيسة العطر، وقد بقيت فيها الأيقونات سليمة بعض الشيء، إلّا أنّ بعض الكلس يتساقط من القبّة ومعه أجزاء من الأيقونات ذاتها. تعود الموضوعات، في هذه الكنائس، في غالبيّتها إلى حياة السيّد المسيح من الطفولة إلى الموت فالقيامة. ومن

الرسوم اللافتة: تكريم المجوس وعلى رؤوسهم القبّعة الشرقيّة وإلى جانبهم الرعاة الخمسة ساتور وأريبو وتنيت وأوبرا وروطاس، والعشاء السرّيّ وفيه الشيطان شيوزي ملتصق بيوضاس، واعتقال السيّد، وإلى جانب هذا الرسم الأخير رسم آخر يمثّل زوجة بيلاطس تهمس في أذن زوجها بأن يترك تلك القضيّة. وهذه الرسوم، بالإضافة إلى العنصرة والصعود، تذكّر بالرسوم الشرقيّة المسيحيّة مع شيء من التأثير البيزنطيّ.

وفي كنيسة أخرى هي الكنيسة ذات الحيّة، من القسم الأوّل في القرن العاشر، تصميمها في شكل صليب، والقبا كما هو معروف، في الشرق منه. القبّة الداخليّة المحفورة في الصخر، وجدران الكنيسة، كلّها مرسومة بالزيتيّات والأيقونات المختلفة. على جدران المدخل، ترى السيّد المسيح في يوم الدين ديّانًا، وحوله ملاكان وإلى يمين الملاكين ويسارهما شيوخ سفر الرؤيا ومجموعة من الشهداء. وترى كذلك مشهدًا من زنة الأنفس ومشهدًا آخر من الجحيم. في هذا المعبد، تصير الزيارة فعل عبادة، والنظر إلى هذه الأيقونات نظرًا روحانيًّا واشتراكًا في الحياة الرهبانيّة، كما لو أنّها لا تزال حيّة اليوم. اللون اللازَوَرديّ الذي يغطّي كلّ المساحات غير المرسومة بالأيقونات هو مدخل إلى عالمَين: عالم السماوات والألوهة، وعالم الوجود والمشاهد والأيقونات المختلفة المرسومة على جدران الكنيسة. فزيارة هذه المعابد، الزاخرة بالماضي وأمجاده، فخرٌ بذلك الماضي الذي شهد حضورًا فريدًا للكنيسة في تلك المنطقة، وفي الوقت عينه حرقة وحسرة على الماضي الذي ذهب ضحيّة التاويخ.

إلى الكنيسة الحمراء

ونغادر وادي إيهلارا والمياه والخُضرة والنهر صعودًا متوجّهين إلى محطّتنا الأخيرة في منطقة كبدوقية قبل الرحيل إلى الساحل التركيّ. وُجهتنا كانت كنيسة فريدة من نوعها، هي الكيزيل كيليسه (أي الكنيسة الحمراء)، من القرن السادس. إلاّ أنّ هذه الكنيسة ليست على طريق

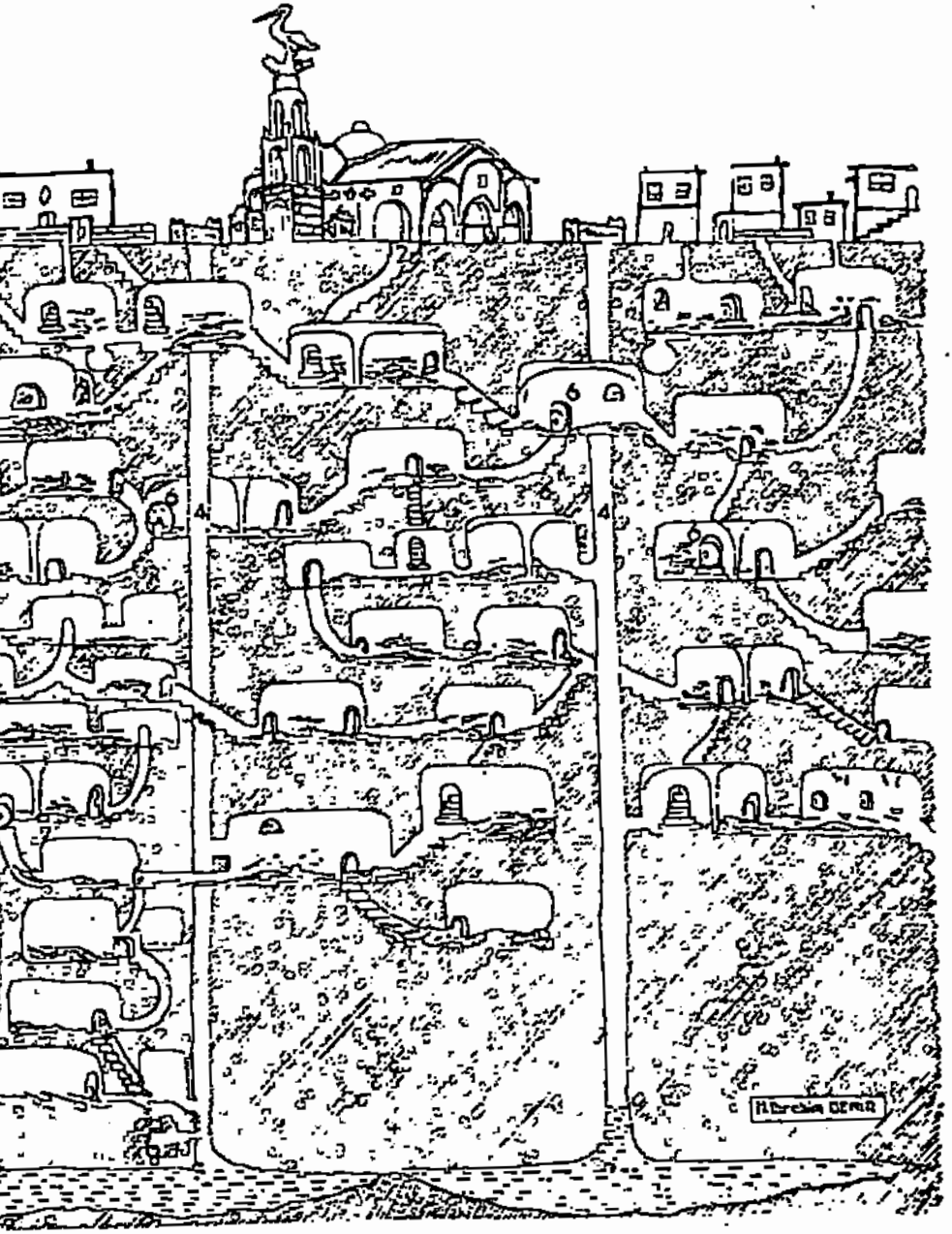

مخطّط مدينة ديرينكويو تحت الأرض

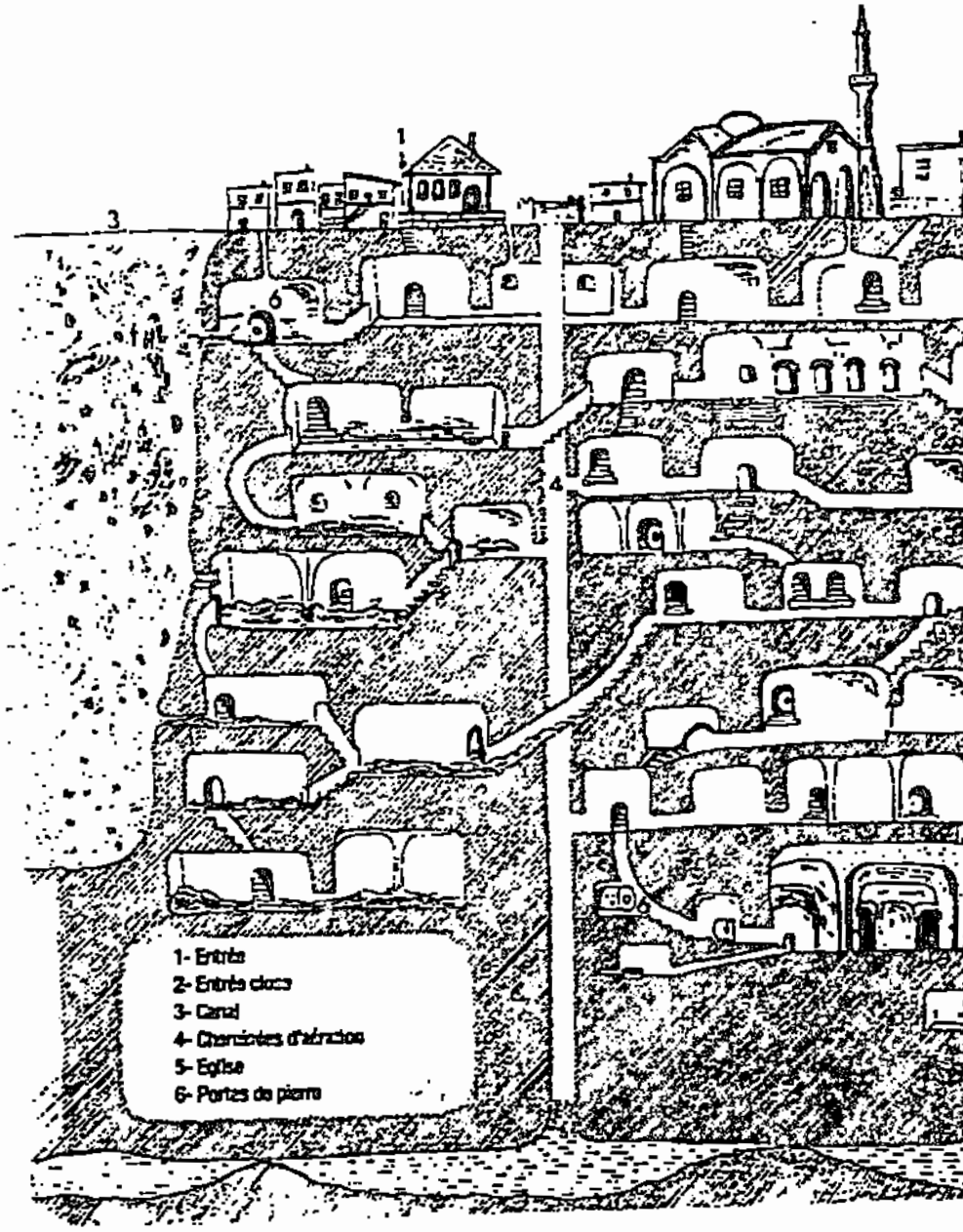

1
3
4
6
1- Entrée
2- Entrée close
3- Canal
4- Cheminées d'aération
5- Eglise
6- Portes de pierre

سياحيّة أو في إطار جولة عاديّة من الجولات السياحيّة، لذلك كان صعبًا بعض الشيء العثور عليها، إلّا أنّ دقّة الدليل السياحيّ الأزرق كانت أقوى من المجهول وعين السائح أفضل مرشد له. فاجتزنا مدينة غوزيليورت، ثمّ بعد مسير ساعة من الزمن بالسيّارة وصلنا إلى بلدة سفريهيزار إلّا أنّنا لم نجد ضالّتنا. وبعد اجتياز البلدة التي تلتحف جبلًا صغيرًا وقف على قمّته برج بيزنطيّ ضربه الخراب من جوانبه، وصلنا إلى سهل تتماوج فيه سنابل القمح الذهبيّة، فأشار أحد رفاق الرحلة، وهو الأمين قائد السيّارة، إلى اليسار بإصبعه فبانت لنا الكنيسة في عمق السهل، وقد أصبحت الطريق المؤدّية لها وراءنا. عدنا أدراجنا للسير في طريق زراعيّة ترابيّة للوصول إلى الكنيسة الحمراء الواقفة وحيدة، مجهولة، بائسة، حيث لا لافتة أو إشارة تشير إلى وجود هذا الأثر التاريخيّ المسيحيّ العظيم الرابض على علو ١٥٠٠ متر تقريبًا. بُنيت هذه الكنيسة في العام ٦٠٠ على وجه التقريب بتصميم بسيط هو تصميم الصليب، تعلوها قبّة عظيمة جميلة لم يصلها الخراب بعد، وهي، على ما يبدو للعيان، كانت مليئة بالرسوم والأيقونات من الداخل، ولقد سُمّيت الكنيسة الحمراء لأنّ حجارتها ملوّنة بالأحمر. أمّا هندستها فإنّها تشير إلى تأثيرات أرمنيّة وسريانيّة معروفة في منطقة الحسن دايي، جبل الحسن.

والكنيسة هذه في سفريهيزار ليست الوحيدة من كنائس كبدوقية التي تحمل سمات الشرق. ففي مختلف قرى المنطقة على ما يبدو، وبحسب معلومات الأدلاّء، ما زالت تنتصب الكثير من الكنائس العريقة في قدمها، الضاربة في عمق الزمن، وبعضها تحوّل إلى أخربة، إلّا أن السياسة السياحيّة لا تأخذها بعين الاعتبار، نظرًا إلى عدد الآثار السياحيّة في منطقة كبدوقية. والتأثير الشرقيّ يتبيّن في الأمور التالية:

- إنّ تصميم الصليب مع قبّة في وسط الكنيسة على ملتقى أطرافه نلاحظه في الكنائس السوريّة - الفلسطينيّة. أمّا القبا المخمّس الأضلاع المندفع نحو الخارج على شكل نصف دائريّ من الداخل فهو من خصوصيّة الأبنية الكبدوقيّة.

- الجدران هي بسماكة حوالى المتر ونيّف، وهذه التقنيّة اعتمدتها الأبنية في أرمينيا منذ القدم للدفاع عن نفسها إزاء الزلازل والهزّات المتواترة الوقوع في تلك المنطقة.

- واستوحت هذه الكنائس بعض الفنّ والتقنيّة السريانيّة، حيث إنّ الزينة هي بسيطة حول الأفاريز والفتحات. أمّا الرسم الأيقونيّ الذي يغلّف الجدران والمنحنيات فهو من الخصوصيّة الكبدوقيّة.

وبعد نظرة وحسرة على الكنيسة الحمراء في عزلتها وطريقها إلى الزوال، نغادر منطقة إيهلارا عن طريق مدينة نيده وقد أشار علينا العارفون بألاّ نسلك الساحل عن طريق مرسين باتّجاه مرسين نظرًا إلى صعوبة مسالكها، فاخترنا طريقًا ثانية باتّجاه كارمان وآلانيا على الساحل، إلّا أنّ هذه المجازفة كانت مغامرة فاشلة حيث واجهتنا طريق غير معبّدة. عدنا أدراجنا صوب بوزكير وسيدشهير وأخذنا الطريق الجبليّ مرّة ثانية صوب مانفاغات ثمّ أنطاليا التي بلغناها في العاشرة ليلًا.

غادرنا كبدوقية وإيهلارا والكنيسة الحمراء، والسؤال على اللسان: لماذا لا تتحرّك الأوساط الدوليّة الثقافيّة وغيرها من المراجع المسيحيّة الأرثوذكسيّة على سبيل المثال، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراث المسيحيّة وحضارتها في تلك البلاد؟ خصوصًا وأنّ الأخطار تترصّدها من كلّ حَدَبٍ وصَوب: أخطارًا من الطبيعة والسماء، وأخطارًا من الأرض والبشر. هل تصمد كبدوقيه أمام الزمن العاتي؟ وهل تبقى أثرًا سياحيًّا يرمز إلى حضارة فريدة وإلى روحانيّة متأصّلة؟ الصوت هنا لا يكفي، وحتّى الأصوات لا تكفي للمناداة بحقّ تلك الآثار، خصوصًا المعابد والأيقونات فيها. لكن لا بدّ من رفع الصوت لتبقى الروح، روح المسيحيّة في كبدوقية، تنادينا من وادي غوريمي، من وادي إيهلارا، من أفانوس، ومن الكنيسة الحمراء.

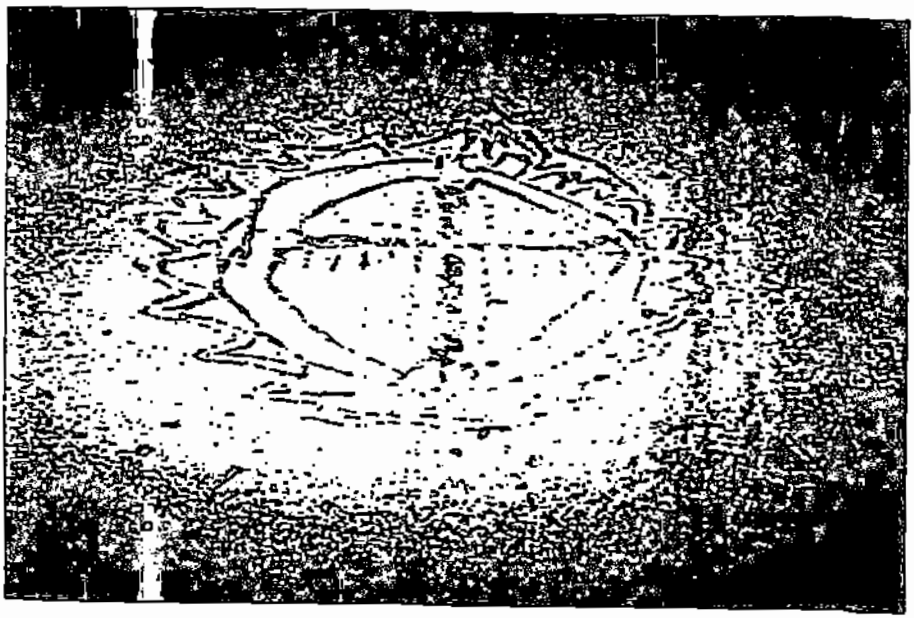

الصليب على واجهة مدخل كنيسة

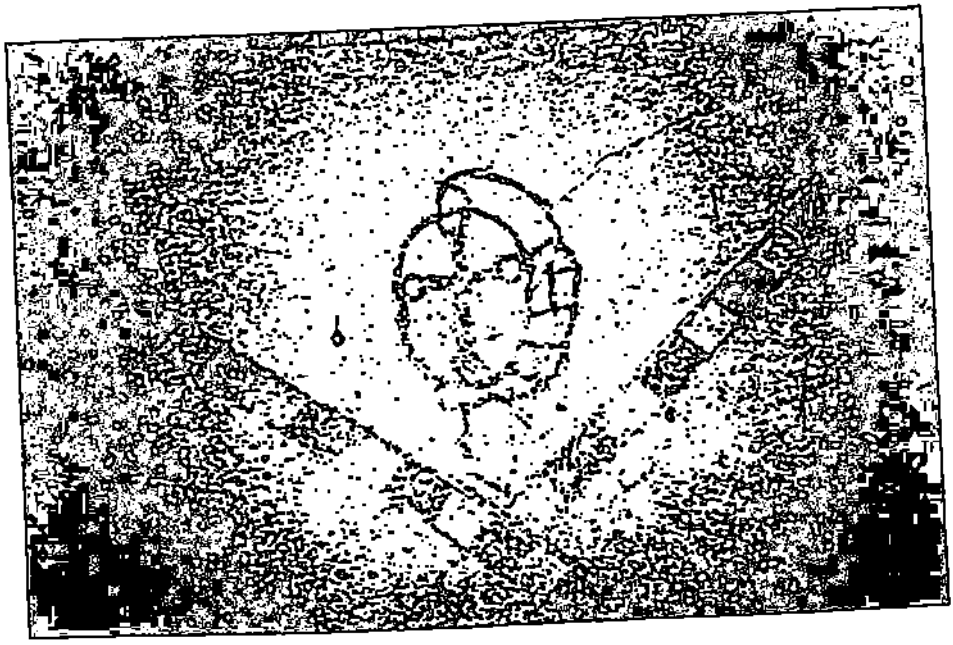

الصليب على واجهة مدخل كنيسة

زلفه، وادي المناسك

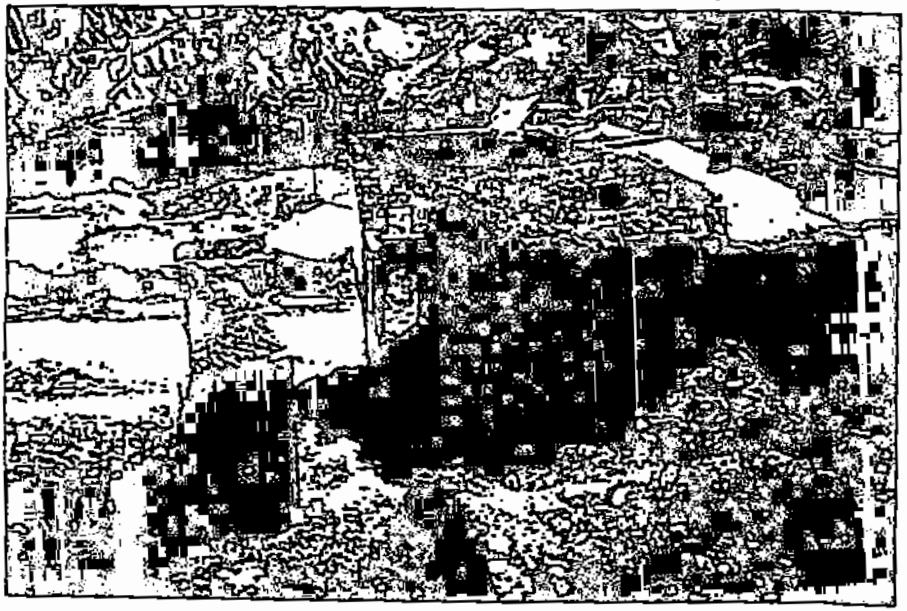

منازل المسيحيين البيزنطيين المهجورة

منظر عامّ لمنطقة غوريمي

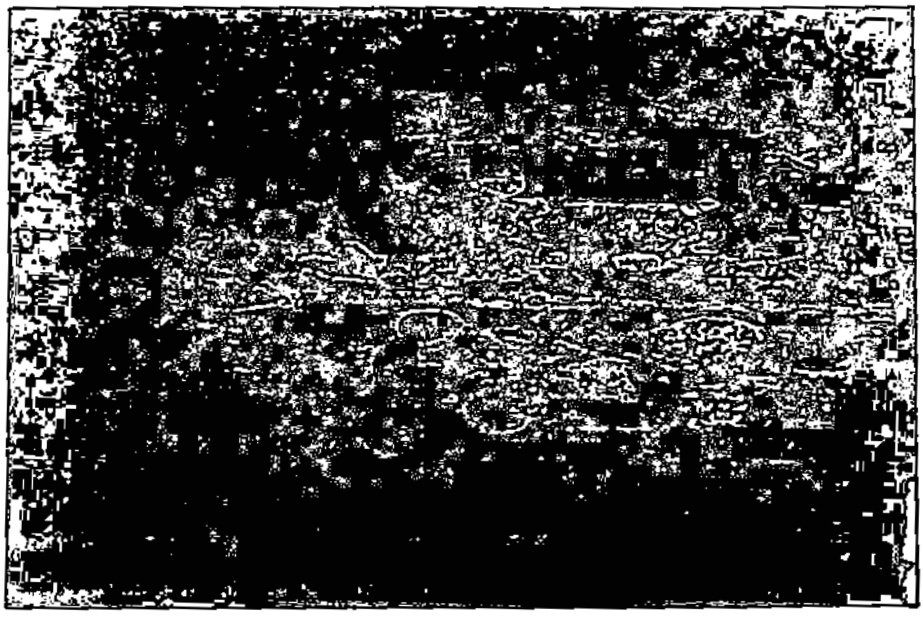

بقايا الأيقونات في إحدى كنائس إيهلارا

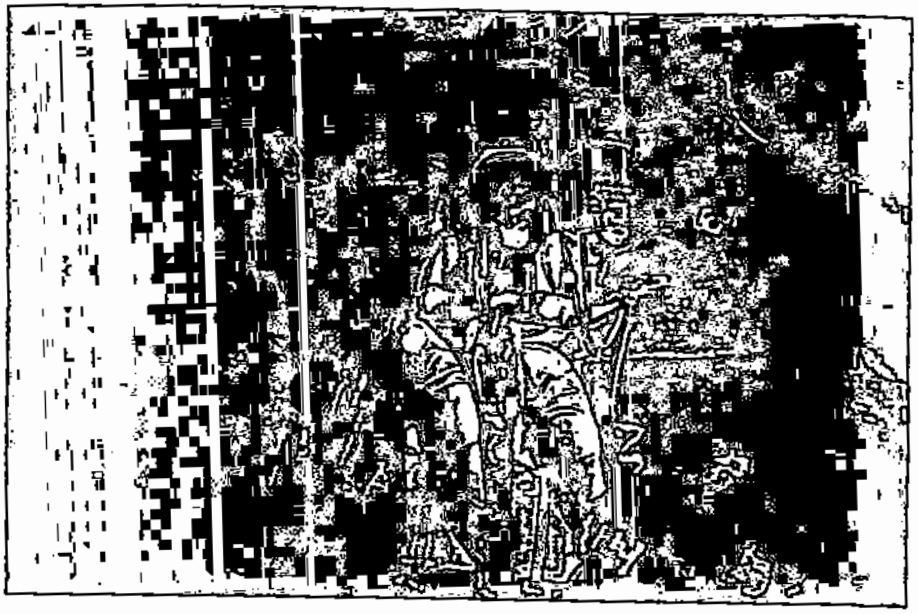

السيّد وتلاميذه

وادي إيهلارا المقدّس

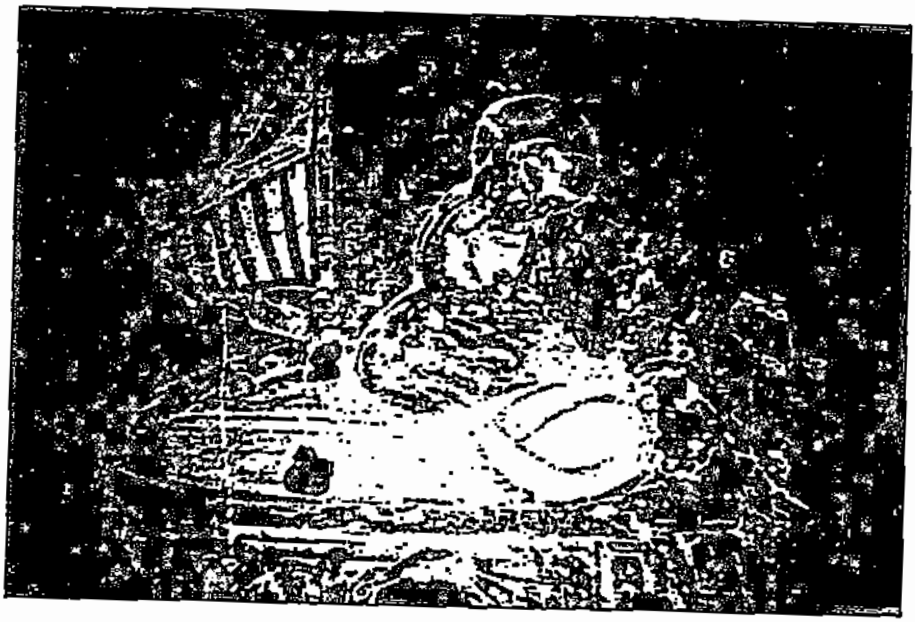

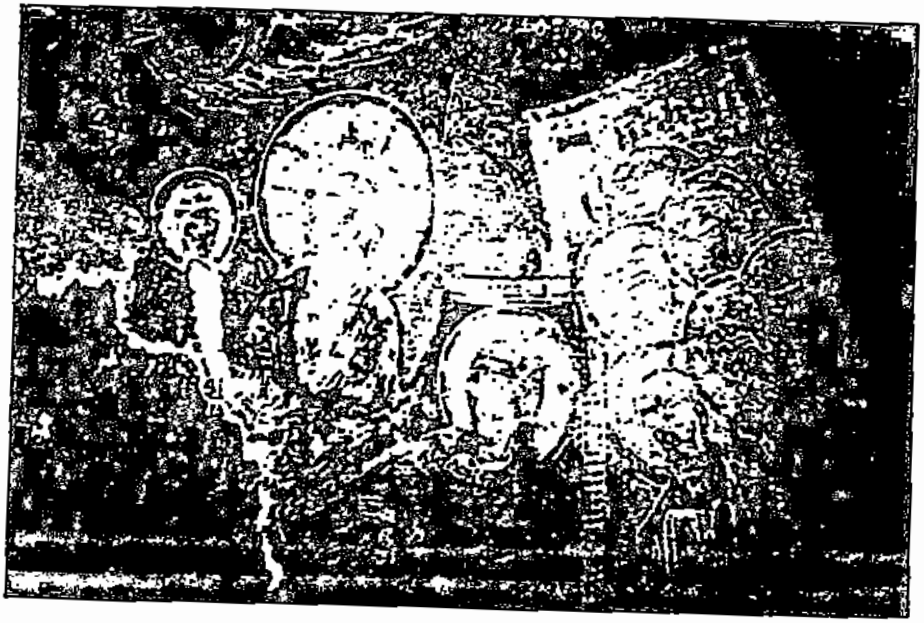

نباحة السيّدة العذراء في إيهلارا وغوريمي

الكنيسة الحمراء في سفريهيزار